

الإذاعة:

نصوصها ومواردها الثقافية بين قومية الثقافة ومحليتها بقلم فاروق مونس

ملاحظتان :

ارجو - بعد هذه المقدمة - ان يتجه الحديث الى تصور محدد
يتناول الموضوع :
شكلا ومضمونا وتطبيقا .
من حيث الشكل :

لا بد من وقفة مستأنية عند قضية اللغة ، باعتبارها وعاء الثقافة
وحاملة التراث والحضارة من ناحية ، واللسان الذي تنطق به السواد
والنصوص الثقافية الإذاعية من ناحية اخرى ، فضلا عن انها القضية
المحورية دائما بين دعاة القومية والمنتصرين للمحلية .

لقد مرت نظرتنا الى قضية اللغة - خاصة في الآونة الاخيرة -
بمزلق قومية وعاطفية خطيرة ، كان ابرزها الدعوة العنيفة الى التمسك
بالفصحى وحدها لغة للتعبير والحياة باعتبارها لغة القرآن ولغة
التراث واللسان الذي يربط بين ابناء الوطن العربي الواحد والذي
بدونه لا يكون تفاهم ولا تواصل ، وارتبطت هذه الدعوة بالهجوم
العنيف على العاميات او اللهجات المحلية والقطرية باعتبارها غير
جديرة بالتعبير والحياة والاستمرار وعلى اساس ان التعصب لهذه
العاميات يخفي موقفا على القومية العربية وترديدا لدعوات الانفصال
والعزلة ..

ولم تكن هذه الدعوة العنيفة - في جوهرها - سوى رد فعل
حاد لما نادى به انصار العاميات واللهجات الاقليمية ، الذين حاولوا
جهدهم كسر رقبة الفصحى ، وترديد الحملات الضارية عليها ،
وغمزها بالعجز عن مواكبة التطور ومسايرة ركب الحضارة والقيام
بأعباء المعاصرة ، فضلا عن جمود التراكيب وجفاف التعبيرات والبعد
عن مألوف الحياة والناس ..

وهذات العاصفة ، بعد ان فرض الواقع نفسه ، وكان منطق
الواقع العربي دائما - على صعيد الثقافة والادب والفن - يقدم
النموذج الرفيع للمواطنة والتعايش بين اللغة الام من ناحية والعاميات
او اللهجات المحلية والقطرية من ناحية اخرى ، منذ اندم العصور
وحتى اليوم ، ولم تكن العلاقة بينهما علاقة سكون او جمود ، وانما
علاقة تفاعل واثراء وافادة ، كانت نتيجتها ما يسميه اليوم بعض علماء
اللغة المعاصرين - في وطننا العربي - اللغة المشتركة او اللغة الثالثة
اي ما نسميه نحن الاذاعيين العرب : لغة الاتصال بالجمهور .

ونزيد المسألة وضوحا ، فان التأمل فيما نستعمله الآن من
ألوان التعبير اللغوي ومستوياته في مجالات حياتنا الثقافية المعاصرة
يستطيع ان يضع يده على ثلاثة انماط من التعبير ترتبط جميعها

تقول النظرة التقليدية بان للإذاعة من خلال برامجها وموادها
المختلفة اهدافا ثلاثة هي : الاعلام والتثقيف والترفيه . وعلى اساس
من هذه النظرة يقوم التقسيم التقليدي للمواد والبرامج الإذاعية :
أ - مواد سياسية ، نشرات اخبار ، تعليقات ، وبرامج تحقق
الهدف الاول « الاعلام » .

ب - مواد ثقافية ، تحقق الهدف الثاني « التثقيف » .

ج - مواد درامية ومنوعة ، تحقق الهدف الثالث « الترفيه » .

غير ان النظرة المتعمقة تتجاوز هذا التقسيم التقليدي ، وترى
ان في كل ما تقدمه الإذاعة ملمحا ثقافيا وقيمة ثقافية ، يستوي في
ذلك ما قصد به التثقيف البحث ، او ما قصد به الاعلام والترفيه ،
فليست هناك اولا فواصل قاطعة او حدود مانعة بين هذه الاهداف
الثلاثة ، فضلا عن ان المسألة يحكمها تماما مستوى التناول الإذاعي
لموضوع من الموضوعات ونوعية هذا التناول ، وهو ما يعطي في النهاية
الطابع العام للبرنامج او المادة الإذاعية بحيث يمكن القول : ان هدف
هذا البرنامج هدف ثقافي او ترفيهي او اخباري .. وهكذا ..
هذا الفهم ، من شأنه ان يعطي للنصوص والمواد الثقافية
والإذاعية معنى أرحب وافقا اشمل ، ودورا اخطر بكثير من حدود
ذلك المجال الضيق الذي تحسبها فيه تلك النظرة التقليدية ،
هذه واحدة ..

واخرى ، ما تثيره تلك الجزئية من عنوان البحث « بين قومية
الثقافة ومحليتها » . وليس وجه الصعوبة هنا ما نعرفه من تداخل
ما هو قومي مع ما هو محلي ، وما هو عربي مع ما هو اقليمي
- على صعيد الثقافة العربية - بحيث تصبح التفرقة بينهما في كثير
من الاحيان عسيرة او مصطنعة ، لكن الصعوبة تكمن في ان الوجدان
الثقافي العام للمستمع - الذي تتجه اليه النصوص والمواد الثقافية
الإذاعية - وجدان يلتحم فيه القومي بالمحلي .. ومن خلال هذا
الالتحام الذي اكده الموروث الثقافي المستمر ، والدين ، واللغة الام
في صراعها المستمر مع اللهجات المحلية (وهو موضوع يتخذ بعدا خاصا
من خلال اجهزة وسائل الاتصال بالجمهور وفي مقدمتها الإذاعة) يصبح
التحديد القاطع للمفاهيم والاتجاهات والسمات امرا قد يتضمن بعض
الشطط والمجازفة ، كما قد تصبح التفرقة بين ما هو مصري وما هو
عربي - على سبيل المثال - تفرقة تتطلب بحثا حضاريا متكامل العدة
والوسيلة ، وهو امر لم تتح دراسته حتى الان .

العربية المختلفة .

وعلى صعيد التطبيق ، فقد اصيحت هذه اللغة تسم بالتخلص من العبارات والكليشيات المحفوظة والتوارثة ، والوان الزينة اللفظية والتناقضات البلاغية التقليدية ، متجهة الى تحقيق بلاغة عمرية مسن نوع جديد تتمثل في المباشرة والتحديد والمرونة والعمق والقدرة على الحركة ومراعاة مستويات المستمعين واحتياجاتهم ، واصبحت هذه اللغة تمثل « الوسط المشروع » الذي لا بد ان يراعيه كل اذاعي يتوجه بالمادة الاذاعية (خبرا كان او تعليقا او برنامجا ثقافيا او تمثيلا او منوعا) الى جمهور المستمعين ، لا يصعد عنه ولا يهبط دونه ، ولم يعد السؤال المطروح : الفصحى ام العامية ، لكنه اصبح : لغة اتصال ناجحة ام لا ، لغة تحتفظ بالقومات الرئيسية للفصحى ، وتتسع - مع ذلك - للسمات والالوان واللالل الخاصة بالعاميات واللهجات المحلية ، وتخلق من كليهما وسطا لقويا متناغما ، اساسه الوحدة والتنوع معا ..

ومن حيث الموضوع :

لعل الملاحظة الاولى الجديرة بالتسجيل - ونحن نتأمل نصوص الاذاعة وموادها الثقافية - هي انه لا خلاف على التراث الثقافي العربي كركيزة اساسية ومنطلق رئيسي في تشكيل الوجدان الثقافي العام للمستمع ، بل ولا صعوبة في العثور على هذا التراث والاهتمام اليه في مظانه ومصادره المختلفة ، وبالتالي فان تناول هذا التراث داخل مواد الاذاعة ونصوصها الثقافية امر ميسور ، غير مختلف عليه (كما هو الحال في البرامج الثقافية والادبية والخاصة التي تعرض لشخصيات واعلام التراث العربي : شعراء وادباء ومفكرين ومصليحين وبرايم المختارات الشعرية والكتابات الادبية والمواقف الحضارية واللمحات التاريخية الدالة .. الخ) لكن المشكلة الحقيقية هي في تناولنا للتراث الثقافي العربي المعاصر - على مستوى الوطن العربي - ومدى الافادة منه .

وهنا ، لا بد من الاشارة الى طفيان العنصر الاعلامي المباشر الوثيق الصلة بالحياة السياسية اليومية على غيره من مكونات الحياة العربية المعاصرة ، وتحكم هذا العنصر في مدى الانفتاح او الانغلاق على الحياة الثقافية في قطر عربي دون آخر ، والى تفرغ وسائل المتابعة والاتصال بالنسبة للتراث الثقافي في كثير من اقطار الوطن العربي - نتيجة لصعوبات النشر والتوزيع والقيود المفروضة على الكتاب والمجلة والصحيفة - مما ادى الى استئثار بعض العواصم العربية بالواجهة الثقافية لكل الوطن العربي (على سبيل المثال : القاهرة وبيروت) بينما بقيت في الظل عواصم عربية اخرى لم يتم التعرف على وجوه حياتها الثقافية المعاصرة بصورة كاملة ، فسي احسن الفروض ، او لم يتم التعرف عليها اصلا في الاغلب الامم !

بالاضافة الى هذه الملاحظة ، ملاحظة اخرى لا تقل عنها اهمية ، وهي خاصة بانفتاح العواصم الثقافية العربية على الثقافات العالمية المعاصرة ، وخضوع هذا الانفتاح في كثير من الاحيان لظروف التأثير السياسي والاعلامي - سلبا وايجابا - دون ان تتحقق له متطلباته الصحية المتمثلة في فتح جميع النوافذ ، والاتساع لكافة الثقافات ، مما ادى الى ردود فعل متضاربة ازاء بعض المفاهيم والتيارات الاساسية في الثقافات المعاصرة رفضا وقبولا - والى اختلاف في المواقف من حيث النظرة العربية القومية الى هذه المفاهيم والتيارات (على سبيل المثال لا الحصر : الفكر الماركسي والاشتراكي والوجودي ، تيارات العصب واللامعقول ، فكر العنف والفضب ، الفكر الشيوعي بوجه عام ..) .

ومن هنا ، فان النظرة الى نصوص الاذاعة وموادها الثقافية لم يعد ينبغي حصرها في اطار قومية الثقافة ومحليتها فقط ، وانما ايضا في اطار قومية الثقافة ومحليتها وعالمييتها .

بلغتنا الفصحى ، وهذه الانماط الثلاثة خاضعة بدورها لطبيعة الاجناس الثقافية التي تمارسها وتعبير بها وتتخذها وسيلة للاتصال . هناك أولا ما يمكن تسميته بفصحى التراث ، ومثلها الاعلى عند الناطقين بها قائم في الماضي ، فهي اذن لغة سلفية ، يتحسس لها من وفقت ثقافتهم الاساسية عند التراث دون ان يتجاوزوه ، والذين يضيفون ذرعا بكل ما يمكن ان يتسع له اهاب اللغة من معاني المعاصرة والانفتاح على مجالات ارحب نتيجة للاحتكاك والتفاعل اللغوي ، بل ان هؤلاء عادة يفتقون في وجه التطور اللغوي سواء كان هذا التطور في نحو اللغة او بنيتها او تركيبها واساليبها او بلاغتها ..

مثال آخر نجده لدى المشتغلين بالعلوم والبحوث التجريبية والمتصلين بالحضارة الحديثة ومنجزاتها ، ان هؤلاء يستعملون لغة عمرية تحاول ان تستوعب هذه المنجزات ، وتتسع لفروع العلم الحديث وتطبيقاته ، وتتلقى الحضارات الوافدة وتتفاعل معها .. وهي لغة تختلف عن لغة التراث ، لانها لا تعتمد على التوارث المألوف قدر اعتمادها على الاشتقاق والنحت اللغوي والترجمة والتعريب والتوسع في القواعد والاصول اللغوية التقليدية حرصا على ان يتسع رداء اللغة لمستحدثات العصر وعلى ان تنهض اللغة العربية باعباء النهضة العمرية التي تبرز مشاكلها اللغوية الحادة في مجالي الفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم : مشكلة الفاظ الحضارة بين التعريب والترجمة ومشكلة صوغ المصطلح العلمي العربي وتوحيده .

هناك ثالثا اللغة الادبية التي يستعملها الادباء في شتى فروع الانتاج الادبي (الشعر والقصة والرواية والمسرحية والريورتاج الادبي) واساس هذه اللغة الانفعال والعاطفة والشعور ، وهي تنهض اساسا بالتعبير عن التجارب الشعورية والوجدانية .. فهي اذن لغة ظلال تهتم بالوان الشعور ومستويات التعبير الانفعالي اكثر من كونها لغة تحديد وحتمية وحسم .. بل ان هذه اللغة الادبية كثيرا ما تكون غاية في ذاتها (في الشعر مثلا) لا مجرد وسيلة من وسائل التعبير ..

هذه الانماط او النماذج الثلاثة من التعبير اللغوي ، موجودة في مجتمعنا العربي المعاصر تتفاعل وتشابك وتتصارع مع المحليات واللهجات القطرية والاقليمية ، ومن خلال صراعها وتفاعلها ولدت لغة رابعة هي لغة الاتصال بالجمهير ، التي تبنتها الصحافة لغة لها اول الامر - بعيدة عن تقعر فصحى التراث وغرابتها من ناحية وعن الوقسوع في أسر العاميات واللهجات المحلية من ناحية اخرى - ثم آزرتها وسائل الاتصال السمي والرتي بالجمهير ، الاكثر حدانة ، وهي الاذاعة والسينما والتليفزيون .. وهكذا وجد لدينا هذا النموذج الرابع من نماذج التعبير اللغوي ، يرفض بطبيعته الجديدة التفرقة والواسعة الانتشار ، ان يكون حبيس لغة التراث ، وليس من الممكن بطبيعة فاعليته ومدى انتشاره ان يكون لغة متخصصة للعلم والحضارة ، ثم هو يختلف كثيرا عن لغة الادب والفن .. لكنه ليس مقطوع الصلة تماما بهذه النماذج الثلاثة من التعبير اللغوي ، فهو يأخذ من كل منها ويصنع من هذه الحصيلة المشتركة شيئا جديدا يحمل ملامح التمايز والاختلاف ، ويقرب بدوره من وجدان الجماهير وتعاملهم اليومي مع الحياة .

وهكذا استطاعت لغة الاتصال بالجمهير من خلال الصحافة والاذاعة بالذات ، ان تكسب للعربية قاموسا جديدا من المفردات والدلالات والتركيب الجديدة .

والخلاصة - بعد هذا الاستطراد الذي لم يكن منه بد - ان لغة الاتصال بالجمهير قد حسمت المناظرة التقليدية بين الفصحى والعامية او القومية والمحلية في اللغة ، وكشفت عن ملامة لفتتسا العربية لاحتياجات العصر الحديث ومتطلباته ، وحقت نفاذا الواسع والاكثر انتشارا الى جماهير المستمعين عبر اقطار الوطن العربي ، مجتازة حدود التعلين والاميين معا ، واصبحت بذلك اللسان الذي يحقق المعادلة الصعبة بين القومية والمحلية في اللغة عبر اذاعتنا

العربي كله ؟ الخ ...) .

ج) بعد ذلك ، فإن الأمر يتطلب تخطيطاً شاملاً - على مستوى الإذاعات العربية - تتحدد من خلاله النسبة بين ما هو قومي وما هو محلي ، على أن يراعى ذلك في الخارطة العامة للمواد والنصوص الثقافية داخل كل إذاعة عربية ، علماً بأن إذاعاتنا العربية جميعاً بحاجة إلى دراسة احصائية ميدانية عن طبيعة وحدود هذه النسبة حالياً وعن التصور السليم لها مستقبلاً .

د) ضرورة العمل على تأكيد وإبراز جوانب اللقاء والتفاعل والترابط في الثقافة العربية وجعل هذه الجوانب محورا للمديد من التناولات الإذاعية في أشكالها وصورها المختلفة تحقيقاً لتجانس الوجدان الثقافي العربي العام ، وهنا لا بد من التأكيد مرة أخرى على ضرورة الالتزام بالمنهج القومي والرؤية القومية والتناول القومي لكافة جوانب الثقافة العربية قديمها وحديثها .

هـ - ضرورة الاهتمام بالعنصر الفعال في هذا المجال - ونعني به عنصر الإنسان - أي الإذاعي العربي نفسه - فقبل القرارات والتوصيات والخطط والخرائط الإذاعية ، لا بد أولاً أن ينتج الاهتمام إلى صنع هذا الإذاعي العربي وتشكيله وصياغته بحيث يتحقق في وجدانه الثقافي هذا التناسق والتناغم والتكامل بين كل ما هو قومي ومحلي وعالمي في ثقافته وبحيث يصبح تأثيره وفعاليته من خلال السواد والنصوص الثقافية ، متجهين إلى المسار الصحيح .

ذلك أن أخطاء التطبيق - التي سوف تكشفها جميعاً من خلال تأملنا لواقع الإذاعات العربية بالنسبة للجانب الثقافي منه - ناتجة بصورة رئيسية عن افتقار النموذج البشري المتوازن للثقافة ، المكتمل الفهم والمتمثل لثقافته في أبعادها المختلفة (القومية والمحلية والعالمية) والمتصل بوجدان أمته وروحها وحضارتها : تراثاً وحاضراً واندفاعاً إلى المستقبل .

فاروق شوشه

دراسات أدبية

من منشورات دار الآداب

٤٠٠	د . طه حسين	مذكرات طه حسين
٢٥٠	د . طه حسين	من أدبنا المعاصر
٢٠٠	ر . م . البيريس	سائر والوجودية
٢٥٠	خليل هندراوي	تجدد رسالة الفران
٦٥٠	فرانسيس جانتسون	سيمون دوبوفوار
٦٠٠	أ . ا . هوتشز	بابا همنفواي
٤٠٠	ريف خوري	الادب المسؤول
٣٥٠	رجاء النقاش	اصوات فاضبة في الادب والنقد
٢٥٠	صلاح عبدالصبور	وتبقى الكلمة (دراسات نقدية)
٢٥٠	د . زكي مبارك	بين آدم وحواء
٢٥٠	د . جلال الخياط	التكسب بالشعر
		محمود احمد السيد
٤٠٠	علي جواد الطاهر	رائد القصة الحديثة في العراق د . علي جواد الطاهر
٥٠٠	د . زكريا ابراهيم	مشكلة الحب
٢٥٠	سامي خشبة	شخصيات من ادب المقاومة

ملاحظة ثالثة ، يكشف عنها تأمل نصوص الإذاعة وموادها الثقافية - في إطارها العام - هي انه ليس هناك تصادم بالضرورة بين ما هو قومي وما هو اقليمي ، بين ما هو عربي وما هو محلي ، لكن المشكلة هي دائماً في المنهج الذي يتناول هذا وذاك ، والرؤية التي بها نستطيع ان نضع كلا منهما في مكانه الصحيح من الخارطة الثقافية للانسان العربي المعاصر بحيث يتم التركيز على الاصيل والجهوري ويصبح كل ما هو اقليمي ومحلي وعابر زيادة في الفنى والثراء والتنوع في الاشكال والالوان والظلال والسمات ، بهذا وحده يتحقق التكامل والتنوع (على سبيل المثال : التناول الإذاعي لموضوع ادبي كاحمد شوقي شاعر العصر الحديث ، من الممكن ان يصح تناولا اقليمياً محلياً ، ومن الممكن ان يصح تناولا قومياً عربياً ، فالعبرة هنا بمنهج الرؤية واسلوب التناول) .

على صعيد التطبيق :

لم يكن في خطة هذه الدراسة ان تقدم بحثاً احصائياً ميدانياً من واقع النصوص والمواد الثقافية الإذاعية ، بل كان اهتمامها الأول والرئيسي ان تشير الى أبرز الظواهر والاتجاهات الموجودة فعلاً ، ذلك ان تأمل هذا الواقع يكشف عن بعض الاتجاهات العامة ويهتد لبعض التوصيات التي يمكن ان تكون مجال مناقشة :

أ) يمثل البرنامج الثاني لإذاعة القاهرة ذروة الاهتمام الثقافي المتخصص لدى الإذاعة والوجه أساساً لمستهمي الثقافة الرفيعة ، والطابع العام لما يقدمه البرنامج الثاني يتمثل أولاً في انه يعكس أول ما يعكس الثقافة العالمية المعاصرة (الدراما العالمية - البرامج الخاصة التي تتناول موضوعات وتيارات واعلاماً من المعاصرين - المترجمات الحديثة في القصة والشعر والادب بوجه عام) ..

تأتي بعد ذلك من حيث النسبة العددية لساعات الإرسال ، ما يخصه البرنامج الثاني من حيز للثقافة المحلية ، شعراً ونثراً ، قصة وحديثاً ، بالإضافة الى بعض البرامج العلمية والأدبية والخاصة ..

وفي المرتبة الثالثة ، يجيء ما يخصه البرنامج الثاني للثقافة العربية ممثلة في برامج خاصة تتناول موضوعات من التراث (شخصيات أدبية وفكرية وعلمية) ..

وهكذا تتضائل المساحة المخصصة للثقافة القومية وتكتمش ، لتأتي قبلها في الأهمية والمساحة الزمنية المخصصة : الثقافة العالمية ثم الثقافة المحلية .

ب) اذا نظرنا الى إذاعة أخرى هي « إذاعة صوت العرب » وهي كما يفهم من اسمها إذاعة قومية بالدرجة الأولى ، سنجد ان هذا الطابع القومي يصدق أكثر ما يصدق على موادها ونصوصها السياسية أكثر من انطباقه على نصوصها وموادها الثقافية التي تظل في كثير منها خاضعة لإمكانات ومتطلبات الثقافة المحلية ، خاصة ما يتصل منها بالادب والفنون ، فضلاً عن الصعوبات التي سبق الحديث عنها والتي تتصل بالعزلة الثقافية بين كثير من أقطار الوطن العربي الواحد ، وانعدام القدرة والوسيلة على التواصل والتعرف على ملامح الحياة الثقافية المعاصرة فيها (على سبيل المثال : أين هي الصورة الكتملة لدينا عن واقع الحياة الثقافية في السعودية او في اليمن او في السودان ؟ وما هو الدور الذي تقوم به النصوص والمواد الثقافية الإذاعية بالنسبة لحركة التعريب في المغرب او في الجزائر وهي حركة عربية قومية في المحل الأول ؟ وإلى أي حد تعكس برامجنا الثقافية الإذاعية النشاط العلمي العربي الموحد لعدد من الجامعات العلمية المتماثلة في دمشق وبغداد والقاهرة ؟ وإلى أي حد تستطيع ان تؤدي هذه النصوص والمواد الثقافية دوراً بالنسبة لتوحيد المصطلح العلمي العربي ، والصياغة العربية لالفاظ الحضارة الحديثة وبالنسبة لمشاكل الترجمة الحديثة - على مستوى الوطن